اهتمام علماء توات بالتأليف في صناعة ألوان المداد
-دراسة وصفية لمخطوط نيل المراد في كيفية عقد ألوان المداد للشيخ محمد الصافي بن محمد البركة – أنموذجا

الأستاذة فاطمة برماتي

جامعة أحمد دراية – أدرار

ملخص:

شهدت توات بأقاليمها الثلاثة حركة علمية متميزة وفي مختلف العصور، حيث ألفوا في فنون وعلوم عديدة؛ كأصول الفقه، والحساب، والجبر، والفلك، واللغة وغيرها من العلوم، لكن في هذه المداخلة خصصناها لجانب قل التأليف فيه حتى في زماننا، ألا وهو الاهتمام بالتأليف في كيفية صناعة وتحضير ألوان المداد.

ونحن في هذه المداخلة سنقف على عالم تواتي مهتم بهذا الجانب، وهو الشيخ محمد الصافي بن محمد البركة من خلال مخطوطه ألوان المداد أيضا، فالمخطوط يحمل مضمونه من عنوانه.

مقدمة:

الحمد لله والصلاة السلام على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم،

وبعد؛

فأننا من خلال هذه المداخلة نحاول أن نسلط الضوء على أحد العلوم التي اهتم بها علماء توات، ألا هو علم الكيمياء من خلال تطلعاتهم إلى البحث في كيفية تشكل وصناعة ألوان المداد، وهو مجال خصب يستحق منا تنبيه الباحثين والدارسين إلى ما ألفه التواتيون بخصوص هذا العلم، على الرغم من قلة العلماء الذين اهتموا به في إقليم توات، ألا أننا عثرنا على مؤلفين فقط في هذا المجال، هما: مخطوط نيل المراد في كيفية عقد ألوان المداد لمحمد الصافي بن

البركة، ومخطوط التقييد المجموع لمن هو في هذا الفن المولوع ليوسف بن عبد الحفيظ التنلاني[1]، رحمة الله عليهما.

ونظرا لمنهجية البحث والتقيد العلمي، فأننا سنحاول الوقوف على المخطوط الأول "نيل المراد" على أننا سنخصص الحديث عن المخطوط الثاني إلى بحث آخر مستقل بحول الله وقوته. وبذلك قسمت بحثي إلى جانبين، جانب متعلق بحياة العالم، والجانب الآخر متعلق بدراسة المخطوط.

1- حول العالم:

الفقيه العالم سيد محمد الصافي بن البركة:

مولده ونشائه[2]:

يعد الشيخ أحد أحفاد الولي الصالح سيدي مولاي سليمان بن علي[3]، وُلد بقصر أدغاغ[4] بقصبة جده المشهورة والمعروفة بزقاق الشهود عام1224هـ، ثم نشأ في حضرة قصر أدغاغ الذي كان آنذاك منبعاً للعلم والمعرفة والثقافة، كما أنه كان مدرسة علمية تخرَّج منها الكثير من العلماء، دخل سيد الصافي الكتاتيب وهو ابن أربع سنوات، حفظ القرآن الكريم على يد والِده سيد محمد البركة الذي اشتُهر آنذاك بعالم قصر أدغاغ، وتطلَّع في علوم القرآن والحديث، وفاق أقرانِه في ذلك حتى وصل إعجاب أبيه به حتى قيل له: "أنت صافي في الدنيا والآخرة"؛ وسبب تسميته

---

[1] – هو يوسف بن عبد الحفيظ بن عبد الحميد بن معروف التنلاني توفى سنة 1167هـ، درس عند مشايخ تينلان، ثم واصل تعليمه على يد الشيخ الحاج محمد بن عبد الرحمن البلبالي . كان عقيما ولم يُخلف. ينظر الذرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، للسيد عبد القادر بن عومر التنلاني، وكذا ما سمعناه شفويا من طرف الأستاذ بن وليد عبد القادر يوم 2014/12/28.

[2] – ينظر في ترجمته: شخصية العالم المؤلف سيد الصافي بن سيدي محمد البركة الأدغاغي، أ.علي سليماني، ص37–43، أعمال الندوة السنوية الثامنة تخليدا لإحياء مآثر الشيخ 14 ماي 2013، حول أحفاد الولي الصالح سيدي مولاي سليمان بن علي العلماء –حياتهم ومآثرهم، طبعة 2014. ومخطوط الذرة الفاخرة في دكر علماء واشراف توات لصاحبها الشيخ عبد القادر بن عومر المهدي (الحاق) ، ومخطوط القبائل التي عمرت قصور توات لصحابها محمد بن الهاشم ، ومخطوط نبذة مختصرة من علماء توات : محمد بن هاشم، ومخطوط دكر بعض اعيان وصلحاء ومشايخ اهل توات وجورارة، والمحن والشدائد التي مرت بتوات :محمد بن هاشم ، بعض الوثائق والمخطوطات المتواجدة بخزانة بن وليد الوليد تذكر مناقب سدي محمد الصافي بن محمد البركة.

[3] – هو أبو داود سليمان "الملقب بـ أوشن" بن مولاي علي الشريف بن أعمر بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن علي بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمان بن عيسى بن أبي القاسم بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبطي بن سيدنا علي بن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وُلد حوالي سنة 549 هجرية الموافق لـ: 1154 ميلادية، ارتحل إلى جوار ربه سنة 670هـ حوالي 1271م وقبره معروف يزار له بأولاد أوشن، خلف خمسة أولاد وبنت واحدة. ينظر درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، سيدي محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق، مخطوط بخزانة سيدي أحمد بن ديدي (تمنطيط)، وينظر كذلك في نسبه وحياته إلى زهرة الأخبار في تعريف أنساب آل بيت النبي المختار، للعلامة المدقق والمحقق أبي عبد الله أحمد بن المقري التلمساني(مخطوط)، وأنساب الشرفاء لأبي بكر بن محمد السيوطي (مخطوط).

[4] – يبعد عن مقر ولاية أدرار حوالي 03 كيلو متر.

بهذا الاسم عندما حملت به أمه سمع والده بنداء يقول له: "حملت زوجتُك بذَكر صافي في الدنيا والآخرة"، فلهذا سُمِّي باسم محمد الصافي، وكانت القبيلة لا تُسمي بهذا الاسم من قبل مشايخه.

حفظ الأمهات من الكتب، ككتاب الرسالة وهو ابن اثنتي عشر سنة، ولمَّا شُهد أنه مستعد للزيادة في التعلم، بعثه والده إلى معدن العلم قصر ملوكة، أين واصل تلقي العلوم على يد الشيخ القاضي الفاضل سيدي عبد العزيز، ثم بعد وفاة شيخه، واصل دراسته على يد سيد أحمد الحبيب البلبالي وبقي معه خمس سنوات، حتى قال فيه: "يا سيد الصافي العلم إليك آتٍ، وأنت منه هارب"، فمنذ تلك النصيحة التزم حتى نال جائزته، والغريب أنه التلميذ الوحيد في مدرسة ملوكة الذي حفظ ألفية ابن مالك في عشرة أيام.

وبعد مدة من طلبه العلم، طلب من شيخه التوجه إلى قصر أنجزمير[1] ليكمل دراسته عند عالمها ومفتيها وقاضيها سيد عبد الرحمان وابن عمه سيد عبد الكريم، وبقي في قصر أنجزمير مدة ثلاث سنوات، ثم بعد تفرُّسه في عدة علوم انتقل إلى قصر أولف ليتعلم فن الظرفية وفنون تغليف المخطوطات الطرازية على يد أبناء بوشنة المشهورين بالصناعة والظرفية، وبعد ذلك رجع إلى قصر أدغاغ ليخلف والده في التدريس والإمامة بالمسجد الكبير بأدغاغ، وازدهرت الزاوية حتي بلغ عددها اثنين وأربعين طالبا، وأكثر أملاكها وقسم مداخل الزاوية على ثلاثة أقسام؛ ثلث للإمام، وسدس للمؤذن، والباقي للطلبة وعابر سبيل .

تلامذته:

تخرَّج على يده علماء كثيرون منهم أخص بالذكر ابن أخته سيد محمد بن هاشم المعروف بن بحي المؤرخ الذي تربّع على علم تاريخ المنطقة، وسيد محمد الهاشمي المنحدر من قبيلة عريقة شريفة من أبناء مولاي عبد الكريم بن سيد حمو بلحاج، ثم تتلمذ على يده سيد محمد بن موسى العالم الفقيه الذي كان يخلفه في أداء الصلوات في المسجد الكبير بادغاغ وكان يدرس معه في المدرسة القرآنية، نسخ عدة مخطوطات منها مخطوط القران الكريم ثم مجلد البخاري وغيرها من المخطوطات .

فراسته في الطب:

إن الفقيه والعالم سيد صافي كتب عنه تلميذه سيدي محمد الهاشمي في مخطوط كرامات أولياء الله الصالحين: كان شيخي سيدي محمد الصافي من أشهر أطباء تيمي، كان يختن الأطفال ويربط المكسور بمسحوق الحنّة وبيض وعصى يجعلها على قدر الساق المكسورة، ويربطها لمدة خمسة عشر يوما يُشفى بأذن الله. كما عالج أيضا أمراض المعدة، فاخترع لها عدة أدوية حسب

[1] – يبعد عن مقر ولاية أدرار حوالي 100 كيلو متر.

المريض، بالإضافة إلى تفرسه في علم الجراحة؛ حيث كان –رحمة الله عليه– جرّاحاً ماهرا عارفا بعلم الطب[1].

وهذا دليل على أن علماء المنطقة كان لهم خبرة كبيرة في المجال الطب، وأن من أشهر العملية الجراحية التي قام بها العالم سيدي محمد الصافي هو أن محمد عبد الرحمان بن القائد الحاج محمد قايد تيمي حين ركلته الفرس في حجره حتى جرحت خصيته اليسرى، قام الطبيب بعملية جراحية ناجحة، وقال لأبيه أن ابنك سيشفى إن شاء الله، لكنه لن يتمكن من الإنجاب، لأن ابنك أصيب في الخصية اليسرى وقطع المرض الإنجاب وتمزق كثيرا، بحيث لا يمكن علاجه، فعاش محمد عبد الرحمان إلى أن أصبح قائد تيمي وفارسها المغوار، وهذا الذي كان قائد جيش توات أثناء غزو واد الساورة عندها قتلوا القائد حسوني وتوفي ولم يترك أولادا[2].

مما قيل عنه:

يقول عنه صاحب مخطوط الذرة الفاخرة في ذكر مشايخ وعلماء توات يقول فيها" ذكر الفقيه الأديب الشريف الأريب سيد الصافي بن الفقيه سيد محمد البركة كان عالماً علاّمة في كل فن، حاوياً من الصناعة والظرفية، والتصنيف أوفر نصيب، فريدُ زمانِه، وله تآليف عدة رحمه الله ."[3]

مؤلفاته:

إنه من خلال اطلاعنا على خزانة الولي الصالح سيدي مولاي سليمان بن علي[4]، نلحظ أن جل المخطوطات جلها من تأليفه ونسخه ونسخ بعض تلامذته المذكورين أعلاه، ومن مؤلفاته نذكر منها:

- نيل المراد في كيفية عقد ألوان المداد؛ المراد دراسته
- تفسير كلمة الإخلاص
- مخطوط مقام اليقين
- فتاوى ونوازل في القضاء
- مخطوط في علم التوحيد
- قصائد شعرية في التصوف

---

[1] – ينظر شخصية العالم المؤلف سيد الصافي بن سيدي محمد البركة الأدغاغي، أ.علي سليماني، ص37–43.

[2] – ينظر المرجع والصفحة نفسهما.

[3] – مخطوط الذرة الفاخرة، الشيخ عبد القادر بن عومر.

[4] – مقر الخزانة: متواجدة بقصر أدغاغ، تحت إشراف أحد أحفاده أ. علي سليماني.

- قصائد شعرية في علم التوحيد
- أرجوزة في علم الفلك
- فضائل المدينة المنورة
- القبائل التي عمرت قصر توات

وفاته:

وافته المنية –رحمة الله عليه– في تاريخ 22 ربيع الأول عام 1315هـ، ودفن بمقبرة أدغاغ بجانب ضريح سيد عبد الرحمان بن محمد البني تامري[1].

2– حول المخطوط:

أ–موضوع المخطوط:

يهتم المخطوط من خلال عنوانه بطريقة تحضير ألوان المداد " الحبر"، وهو يندرج ضمن صناعة الألوان الذي يتطلب خيالا واسعا من قبل الخطاط.

ب– قراءة في العنوان ودقة صياغته:

المتتبع في صياغة العنوان يلحظ أنه عنوان مركب من عدة كلمات، ولكنها جاءت موّزعة ومُحكمة الترتيب والتركيب؛ مبتدأً بنيل المراد، والقصد الوصول إلى المبتغى أو القصد، أو الهدف.

" في كيفية" وهي الطريقة الواجب اتباعها في العمل، و" عقد" تركيب مستحضر ما، حسب الطرح المتخصص أو المعاصر، و"ألوان المداد" هو أن صاحبه يخصص دراسته حول ألوان المداد أو الحبر، وأنه استعمل لفظ المداد بدلا من الحبر، لأن القدامى كانوا يستعملون كلمة مداد أكثر من كلمة حبر.

جـ– أهميته:

هناك وصفات عديدة تركها القدامى لأجل تحضير المداد، مرجئين فيه إلى التحضير الكيماوي لوصفات الحبر، والشيخ سيد الصافي والمطّلع على كتابه يلحظ أن هذا المؤلف لم يخرج من دائرة توضيحه لمصطلحات كيميائية محضة، في طريقة تحضير الألوان، فكيف لعالم تواتي أن يقف على مصطلحات كيميائية في عصره، مما يدفعنا إلى الاعتراف بالحقيقة المعرفية لهذا العالم التي لا خلاف فيها ولا جدال، فهو الفقيه والبارع في القضاء، والعالم في الفلك والطب.

د–نسبة المخطوط إلى صاحبه:

[1] – ينظر شخصية العالم المؤلف سيد الصافي بن سيدي محمد البركة الأدغاغي، ص 43.

المخطوط ثابت ثبوتا قطعيا لمؤلفه الشيخ سيد الصافي، حيث يقول في الورقة الأولى منه بعد البسملة والصلاة السلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يقول العبد الدليل الحقير المنكسر خاطره لقلة العمل والوزر الكثير محمد الصافي بن محمد البركة بن عبد الرحمان بن عبدالله "[1].

واجهة غلاف المخطوط

[1] – مخطوط نيل المراد في عقد ألوان المداد، محمد الصافي بن محمد البركة، الورقة رقم 01، مخطوط بخزانة سيد مولاي سلمان بن علي، بأدغاغ، لصاحبها الأستاذ علي سليماني.

الورقة الأولى لمخطوط " نيل المراد في عقد ألوان المداد"

هـ–سبب تأليفه إيّاه:

كثيرا ما نجد الشيخ يذكر دوافع تأليف مؤلفاته، ومنها المخطوط الذي نحن بصدد الحديث عنه، والذي كان سبب تأليفه بطلب من أحد الأشخاص المعاصرين له، فكيف يتسنى لشخص أن يطلب من الشيخ الصافي تأليف كتاب في مثل هذا الفن لو لا عِلمه المسبق بتبحر هذا العالم في شتى العلوم والفنون، ومن ذلك يقول الشيخ محمد الصافي عن سبب تأليفه لهذا المخطوط قائلا: " فقد سألني بعض الإخوان أن أضع له تقييداً على عقد ألوان المداد فأجبته إلى ذلك"[1]؛ أي أنه أجاب السائل تأليف هذا الكتاب المتضمن كيفية عقد ألوان المداد لينال السائلُ مرادَه، ولذلك عنونَهُ بـ"نيل المراد في كيفية عقد ألوان المداد".

و–مصادره:

من خلال تتبعنا للمخطوط من بدايته إلى نهايته لم نجد ذكرا لأي مصدر رجع إليه الشيخ أثناء تأليفه، أو أنه سمع شفويا مضمونه من أحد المهتمين بهذا الفن.

ز– عدد صفحات المخطوط ونوع الخط ولونه:

المخطوط يشمل على أزيد من سبع وعشرين صفحة، بمعدل اثني عشر سطرا في الصفحة الواحدة، مكتوب بالخط المغربي باللون الأسود في معظمه، مميزا أبوابه وعناوينه الفرعية التي سماها بالأوجه باللونين الأحمر والأزرق لأجل الفصل بين العنوان ومضمونه، وجعله سهل القراءة دون تعقيد.

ح– مضمون المخطوط:

نجد أن صاحبه يتحدث عن موضوع جوهري دقيق لا يلجه إلاّ العالم الفطن العارف بأنواع الأعشاب والأحجار والأشجار، فالعالم –تقريبا – ينهج منهج المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي ت454هـ، في كتابه "عمدة الكُتَّاب وعُدَّة ذوي الألباب[1]" الذي قسمه إلى أبواب، وموضوعه في هذا الفن الذي نحن بصدد الحديث عنه.

فالصافي قسم كتابه إلى أزيد من عشرة أبواب ، وتحت كل باب عدة أوجه بمعدل ستة أوجه في كل باب؛ منها :

–باب عقد اللون الأحمر[2].

---

[1] – المصدر نفسه، الورقة رقم 01.

[1] – تحدث فيه عن صفة الخط والأقلام، والمداد والليق، والحبر والأصباغ .

[2] – ينظر مخطوط نيل المراد في كيفية عقد ألوان المداد، ص02

– باب عقد الحبر الأخضر[1].

– باب عقد الحبر الأزرق[2].

–باب عقد اللون الأصفر[3].

–باب صنعة حل الذهب وإلصاقه وحل جميع المعادن[4].

–وآخر الأبواب خصصه لذكر أمور وضعية من علوم الهندسة والهيئة تتوقف على معرفتها رسوم التزاويق والتماثيل التي لا يتم حسن الخط إلا بها[5].

الكتاب لغوي بامتياز، حيث وقف على أصول الألفاظ بإرجاعها إلى مظانها الأصلية الموضوعة معجميا، ثم محاولة منه استنطاق اللفظة صرفيا وتنزيلها منزلة القوالب الصرفية المختلفة في مثل: عقد الزرفطون[6]: المدعو بلسان العامة زِل بكسر الزاي وتضعيف اللام مثلا، وهذا ما جعلنا ننبه على أن الشيخ أعطى أهمية للقارئ البسيط محترما استعمال اللفظ اجتماعيا، وجعله متعارفا في البيئة الاجتماعية وبين مستعمليه، ولكنه لا يقف عند هذا الحد، بل كما قلنا سابقا يسجله بلفظه الأصلي كما ورد معجميا، ثم يبين التلوين الدلالي الاجتماعي الذي اعتراه، وكل ذلك لأجل تبسيط الفكرة أكثر فأكثر.

ومثله أيضا (الصمغ) في قوله: واجعل عليه شيئا من ماء الصمغ المحلول...وحركه بأصبعك يأت حسنا[1]، فإذا رجعنا إلى المعاجم فإنها تبين معنى الصمغ بالسائل الذي يخرج من الشجر في الغالب "يسيل" في مثل قول ابن منظور: " **الصَّمْغُ الَّذِي يَسِيلُ مِنَ الشجَر أَسْوَدَ**" [2]، فالشيخ الصافي إذن يحافظ على توظيف اللفظ لغويا في سياقه المناسب، دون اللجوء إلى معناه الاجتماعي.

ومثله أيضا توظيفه للفظة (ليقة) التي هي القطن المستعمل في الدواة، وإذا عدنا إلى المعاجم وجدناها توظف المعنى نفسه، ومنه قول ابن منظور: " **ليق: لاقَ الدَّوَاةَ لَيْقاً وألاقَها إلاقَةً، وَهِيَ أَغْرَبُ، فلاقَتْ: لَزِق الْمِدَادَ بِصُوفها، وَهِيَ لَائِقٌ لُغَةٌ قَلِيلَةٌ، ولُقْتُها لَيْقاً أَيْضًا، وَالِاسم مِنْهُ**

---

[1] – نفسه، ص07.

[2] – نفسه، ص09.

[3] – نفسه، ص15.

[4] – نفسه، ص20.

[5] – نفسه، ص24.

[6] – نفسه، ص03.

[1] – نفسه، ص02.

[2] – لسان العرب، ابن منظور، مادة (هيد)، 435/3، دار صادر بيروت، ط3، 1414هـ

اللِّيقةُ، وَهِيَ لِيقةُ الدَّوَاة. التَّهْذِيبُ: اللِّيقة لِيقةُ الدَّوَاةِ وَهِيَ مَا اجْتَمَعَ فِي وَقْبَتِها مِنْ سَوَادِهَا بِمَائِهَا"[1]

أمثلة في كيفية عقد الألوان:

ومثل ذلك في عقد اللون الأحمر، ومنه أوجه عدها الشيخ الصافي، منها:

الوجه الأول: يتم في سحق الزنجفُور (معدن حاصل من ازدواج الزئبق بالكبريت، ومسحوقه ينتجه عنه أحمر ناصع) ، وذلك أن تأخذه وتسحقه –كما يقول– غاية السحق وتتركه يومين أو ثلاثة أيام، وتعاود سحقه لكي يموت ثم تجعله في آنية وتغمر فيها الماء وتغسله وتتركه حتي يجف[2].

ومنه أيضا الوجه الرابع: عمل ليقة الزنجفور وهي في مثل قطعة قطن، حيث يقول: وذلك أن تأخذ من مسحوق الزنجفور، واغسله بماء الرمان الحامض غسلا جيدا وتتركه ساعة، ثم يُصفى وبعد ذلك يعاد سحقه بالماء قليلا قليلا حتى لا يكاد يشرب شيئا ويبقى كأنه الحريرة، فحينئذ تلقى عليه الصمغ المحلول، واسحقه به حتى يختلط معه، وأنزله وألق عليه ليقه حرير مغسولة في زجاج واكتب به ما أردت[3].

وفي آخر الأبواب نجد الباب العاشر الذي ذكر فيه أمورا وضعية من علوم الهندسة والهيئة. يتوقف على معرفتها رسوم التزاويق والتماثيل التي لايتم حسن الخط إلاّ بها، وهي لا تتم أيضا إلاّ بآلات عمد إلى ذكر البعض منها، ومنها "الدابد"، والقصد به "المدور" الذي نعرفه في أيام المدرسة، ولكنه وصفه وصفا دقيقا، بارعا. ومن أجزائه (البركاز) الذي أشار إليه الشيخ الصافي؛ إذا عدنا إلى المعاجم وجدناها تنتمي إلى الآلات، حيث يقول فيه: وهو الذي يحدث خطا، ورأسه يشبه القلم، وقد يكون رقيقا جدا وغير رقيق[1].

هذا جزء ما يتعلق بالمخطوط من ناحية الشكل والمضمون، حاولنا تقصيه في هذا البحث.

خاتمة:

إن ما يمكننا الخلوص إليه الآتي:

–إن علماء توات لم يغفلوا العناية بفن صناعة الألوان منذ القدم.

---

[1] – المصدر نفسه، مادة (ليق)، 334/10.

[2] – مخطوط نيل المراد، ص02.

[3] – ينظر مخطوط نيل المراد، ص04.

[1] – ينظر نفسه، ص26–27.

–لم نجد من هذا الفن –حسب ماعثرنا عليه–إلا من خلال مخطوطتين لعالمين في إقليم توات؛ يوسف بن عبد الحفيظ التنلاني، والشيخ الصافي بن البركة الأدغاغي.

– إن الشيخ الصافي موسوعة علمية في مختلف العلوم، وأن تأليفه في هذا الفن شبيه بما أشار إليه أبو القاسم الزجاجي.

– وتوصية يمكننا الخروج بها من هذا البحث، هو ضرورة عناية الباحثين بهذا التراث المتعلق بفن صناعة الألوان؛ جمعا ودراسة وتحقيقا.

إن أصبت فمن الله عز وجل لا محالة، وإن أخطات فمن نفسي ومن الشيطان، وبالله التوفيق